﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ[1] وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ[2] فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

وهكذا يكون العذاب فى الدنيا وفى الآخرة ، ويلْقوْن الخزْى يوم القيامة . والخِزْى هو الهوان والمَذلَّة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ؛ ولا يتجلَّد أمامه أحدٌ ؛ فالخِزْى قشعريرة تَغْشَى البدن ؛ فلا يُفلت منها مَنْ تصيبه .

وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام ؛ فالخزْى معنى نفسى ، والمعانى النفسية تنضح على البشرة ؛ ولا يقدر أحد أنْ يكتمَ أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التى عاش بها ذلك الذى بيَّت ومكرَ .

ويُوضِّح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله عن القرية التى كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً[3] كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[4] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) أخزاه : أهانه وفضحه . [القاموس القويم ١/١٩٢] . يخزيهم : أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم ، قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٢) .

(٢) تشاقون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [لسان العرب - مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التى نقلها ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٩) والقرطبى (٥/٣٩٢١) وساق القرطبى قولاً عاماً أنها أى قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغَد العيش : اتسع وطاب . وقال تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

أى : كان الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكان الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزى فكُلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدَّعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبُّره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ .. (٢٧) ﴾ [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة ، وجعلتم من المؤمنين شقَّة أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب » والمقصود هنا أنْ جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّة تُعادونها ، وأخذتُم جانب الباطل ، وتركتُم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

[النحل]

وكان هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين آتاهم الله العلم .

والعلم - كما نعلم - يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقَل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقَل من الملائكة إلى الرُسل ، ثم يُنقل من الرُسُل إلى الأمم التى كلَّفَ الحق سبحانه رسله أنْ يُبلِّغوهم منهجه .

وكَما شهدتْ الدنيا سقوط المناهج التى اتبعوها من أهوائهم ، وسقوط مَنْ عبدوهم من دون الله سيشهد اليوم الآخر الخِزْى والسوء وهو يحيط بهم ، وقد يكون الخِزْى من هَوْل الموقف العظيم ، ويحمى الله مَنْ آمنوا به بالاطمئنان .

ونعلم أن الرسول ﷺ قد قال : « ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد »[1] .

وكما بلَّغَ رسولُ الله أمته واستجابتْ له ؛ فقد طلب منهم أيضاً أن يكونوا امتداداً لرسالته ، وأنْ يُبلِّغوها للناس ، ذلك أن الحق سبحانه قد منع الرسالات من بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وصار من مسئولية الأمة المحمدية أنْ تُبلِّغ كل مَنْ لم تبلغه رسالة الرسول ﷺ .

وقد قال ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2]

والحق سبحانه هو القائل[3] :

---

(١) ورد هذا القول فى أحاديث كثيرة منها حديث عبدالله بن مسعود الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٨) قال : خطبنا رسول الله ﷺ فأسند ظهره إلى قبة آدم ، فقال : ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة . اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٧/١) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (٤٧/١) من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ علىَّ . فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء] فقال : « حسبك الآن » . فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين ولفظه « رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى فرفعت رأسى فرأيت دموعه ﷺ تسيل » .

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ .. (٤٢)﴾ [النساء]

أى : يتمنونَ أنْ يصيروا تُرَاباً ، كما قال تعالى فى موقع آخر :

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)﴾ [النبأ]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ(١) مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾

يقول تعالى :

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨)﴾ [النحل]

أى : تتوفاهم فى حالة كَوْنهم ظـالمين لأنفسهم ، وفى آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لحَظِّ نفسه ولصالحها .. فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيك .. ولكن كيف ذلك ؟

(١) أى : الاستسلام . أى : أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٢] .

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهلٌ التصدى له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التى بين جَنْبَيْك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدِّى له ، والتخلّص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أنْ تمنعَ صاحب حَقٍّ حَقَّه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حَقّها ؟

نقول : حين تجوع ، ألاَ تأكل ؟ وحين تعطش ألاَ تشرب ؟ وحين تُرْهق من العمل ألاَ تنام ؟

إذن : أنت تعطى نفسك مطلوباتها التى تُريحها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نمْتَ وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفى النهاية كانت النتيجة فشلاً فى العمل أو خسارة فى التجارة .... الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسانُ نفسه بما فاتها من منافع فى الدنيا ، وقِسْ على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جُزْئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هى نهاية كل شىء ، أم بنهايتها يبتدىء شىء ؟ بنهايتها يبتدىء شىء ، ونسأل : الشىء الذى سوف يبدأ ، هل هو صورة مكرورة لما انتهى فى الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهى فى الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حَظِّى منه على قَدْر قدراتى ، وقدراتى لها إمكانات محدودة .. أما الذى سيبدأ - أى فى الآخرة - ليس بمنْتهٍ بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من

نعيم يأتى على قَدْر إمكانات المنعم ربك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطى نفسك متعةً فى الدنيا الزائلة المنقطعة ، تُفوّت عليها المتعة الباقيةَ فى الآخرة .. وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

نعود إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

أثبتت هذه الآية التوفِّى للملائكة .. والتوفِّى حقيقةٌ لله تعالى ، كما جاء فى قوله :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكأن الله تعالى هو الذى يتوفَّى الأنفسَ رغم أنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

وقال :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .. (١١) ﴾ [السجدة]

وقال :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام]

إذن : جاء الحَدثُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة عزرائيل مرة ، ومن مُساعديه من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الآمر .

وقوله تعالى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

معنى التوفّى من وفّاه حقّه أى : وفّاه أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وَفَّيتُك دَيْنك .. أى : أخذت ما لك عندى .

﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨)﴾ [النحل]

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِي ﴾ يعنى ظالمين و ﴿ أَنفُسِهِم ﴾ جمع ، وحين يُقَابَل الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً أى : أن كلاً منهم يظلم نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ .. (٢٨)﴾ [النحل]

أى : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبّرهم وعجرفتهم فى الدنيا .. ذهب عنهم كل هذا بذَهَاب الدنيا التى راحتْ من بين أيديهم .

وما داموا ألقوا السَّلم الآن ، إذن : فقد كانوا فى حرب قبل ذلك كانوا فى حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشِّقاق فى قوله تعالى :

﴿تُشَاقُّونَ .. (٢٧)﴾ [النحل]

أى : تجعلون هذا فى شقٍّ ، وهذا فى شقٍّ ، وكأن الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جَلَد[1] لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨)﴾ [النحل]

هذا كقوله تعالى فى آية أخرى :

---

(١) الجلد : القوة والشدة . والجلد : الصلابة والجلادة . [لسان العرب ـ مادة : جلد] .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ[1] إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

والواقع أنهم بعد أنْ ألقَوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاعَ عن أنفسهم :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨)﴾ [النحل]

وتعجب من كَذِب هؤلاء على الله في مثل هذا الموقف ، على مَنْ تكذبون الآن ؟!

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿بَلَىٰ .. (٢٨)﴾ [النحل]

وهي أداةُ نفي للنفي السابق عليها ، ومعلومٌ أن نَفْي النفي إثبات ، فـ ﴿ بلى ﴾ تنفي :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ (٢٨)﴾ [النحل]

إذن : معناها .. لا .. بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾ [النحل]

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتَفِ بالعلم فقط ، بل دوَّن ذلك عليهم وسَجّله في كتاب سَيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى :

---

(١) قال ابن عباس معنيين في تأويل كلمة (فتنتهم) : الأول : معذرتهم . الثاني : حجتهم . نقلهما السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٥٨) .

﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء]

وقال :

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[1] فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها .. ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشريّ الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها .. وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما نرقى إمكانات العقل البشرى إلى الإمكانات الإلهية التى لا حدود لها .

فلا وجه - إذن - لأنْ ننكر قدرة الملائكة « رقيب وعتيد»[2] فى تسجيل الأعمال فى كتاب يحفظ أعماله ويُحصى عليه كل كبيرة وصغيرة .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾

سبق أنْ قُلْنا فى شرح قوله تعالى فى وصف جهنم :

---

(١) طائره : عمله وما قُدِّر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال الحسن : أى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٧] .

(٢) يقول تعالى فى سورة ق : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق] .

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر]

أى : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً .. فبابٌ لأهل الربا .. وبابٌ لأهل الرِّشوة .. وباب لأهل النفاق وهكذا .. ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصى !! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر .. حقاً ما أتعس هؤلاء !

وهنا يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النحل]

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذى خُصِّص له .

ثم يقول سبحانه :

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل]

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى فى موضع آخر :

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل]

فتكبَّر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كِبْرهم هذا غير ذاتىّ ؛ لأن الذى يتكبر حقاً يتكبَّر بما فيه ذاتياً لاَ يسلُبُه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشىء لا يملكه فتكبّره غيرُ حقيقىّ ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبَّروا به فى الدنيا ، وبذلك لا يكون لأحد أنْ يتكبَّر لأن الكبرياءَ الحقيقى لله عزَّ وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) ﴾

وقد سبق أنْ تحدثنا عن قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ[(١)] الْأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

فهذه مشاهد ولقطات تُبيِّن الموقف الذى انتهى بأنْ أقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآياتُ نزلتْ فى جماعة كانوا داخلين مكة .. وعلى أبوابها التى يأتى منها أهل البوادى ، وقد قسَّم الكافرون أنفسهم على مداخل مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبى الجديد.

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحيَّنون الفرصة ويخرجون على مشارف مكة بحجة رَعْى الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء السائلين ليخبروهم خبر النبى ﷺ وخبر دعوته[(٢)] .

مما يدلُّ على أن الذى يسأل عن شىء لا يكتفى بأول عابر يسأله ، بل يُجدِّد السؤال ليقف على المتناقضات .. فحين سألوا الكافرين قالوا :

---

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة ، فهى الأحاديث لا نظام لها أو لا اصل لها ، أو هى حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهى أكاذيب لا تصدّق بزعمهم . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٤) ، والسيوطى فى الدر المنثور (٥/١٢٥) .

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

﴿ قَالُوا خَيْراً .. (٣٠) ﴾ [النحل]

هذا لنفهم أن الإنسانَ إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفى بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر :

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

وحينما سألوا أهلَ الإيمان والتقوى :

﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً .. (٣٠) ﴾ [النحل]

ونلاحظ هنا فى ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا (٣٠) ﴾ [النحل]

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يُبيِّن هُويَّتهم ، وهذا يدلُّنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويُدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضِعَافاً لا يقدرون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف ـ موقف السؤال إلى أنْ تصل إلى الوجهة الصواب ـ حينما عَتَب الحق تبارك وتعالى على نبى من أنبيائه هو سيدنا داوود ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا

(١) تسور السور : تسلّقه وعلاه . [القاموس القويم ١/ ٣٣٥] .

بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ[1] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي[2] فِي الْخِطَابِ (٢٣)﴾

[ص]

فماذا قال داود عليه السلام ؟

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ .. (٢٤)﴾ [ص]

وواضحٌ فى حكم داود عليه السلام تأثُّره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكُنْ عنده شىء ، ألم يظلم أخاه بأخْذ نعجته ؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وأدخل فيه حيثية أخرى ، وهذا خطأ إجرائى فى عَرْض القضية ؛ لأن (تسع وتسعون) هذه لا دَخْل لها فى القضية .. بل هى لاستمالة القاضى وللتأثير على عواطفه ومنافذه ، ولبيان أن الخَصْم غنى ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود ـ عليه السلام ـ خطأه فى هذه الحكومة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ .. (٢٤)﴾ [ص]

أى : اختبرناه كى نُعلِّمه الدرس تطبيقاً .. أيحكم بالحق ويُراعى جميع نواحى القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربَّه وخَرَّ له راكعاً مُنيباً .

---

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء . وأشط فى حكمه : جار وظلم . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٢) أكفلنيها : معناه اجعلنى أنا أكفلها وانزل أنت عنها . قاله الزجاج . [لسان العرب ـ مادة : كفل] . وعزنى فى الخطاب : أى غلبنى فى الاحتجاج . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

قال تعالى :

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود ـ عليه السلام ـ أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثانى فى الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

ما هو الخير ؟ الخير كُلُّ ما تستطيبه النفس بكل ملَكَاتها .. لكن الاستطابة قد تكون موقوتة بزمن ، ثم تُورث حَسْرة وندامة .. إذن : هذا ليس خيراً ؛ لأنه لا خيرَ فى خير بعده النارُ ، وكذلك لا شرَّ فى شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خَيْراً دائماً فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة ، فلو أخذنا مثلاً متعاطى المخدرات نجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائفة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما ينقلب هذا الخير فى نظره إلى شر عاجل فى الدنيا وآجل فى الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير فى نفسك وكيفيته وعاقبته .. وهذا هو الخير فى قوله تعالى :

﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

إذن : هو خير تستطيبه النفس ، ويظل خيراً فى الدنيا ، ويترتب عليه خير فى الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة .. ثم فسَّره الحق تبارك وتعالى فى قوله سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ..(٣٠)﴾

[النحل]

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاَّ يترك الدنيا وأسبابها ، فربما أخذها منك الكافر وتغلَّب عليك بها ، أو يفتنك فى دينك بسببها ، فمَنْ يعبد الله أَوْلى بسرِّه فى الوجود ، وأسرارُ الله فى الوجود هى للمؤمنين ، ولا ينبغى لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن فى أسباب الدنيا حتى تأمنَ الفتنة من الكافرين فى دُنْياك .. ولا يـ ـى ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

أى : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليَدُ العليا بما اجتهدوا ، وبما عَملوا فى دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسانُ نفسه وينفع غيره ، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هى العليا ، وكان ثوابك وخَيْرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبى ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »(١) .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ومسلم فى صحيحه (١٥٥٣) كتاب المساقاة من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

الإحسان فى الدنيا وهى الأمن .. فمَنْ عاش فى الدنيا مستقيماً لم يقترف ما يُعَاقب عليه تجدْه آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر أو مكروه تجده آمناً لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خُذْ مثلاً اللص تراه دائماً مُتوجِّساً[1] خائفاً ، تدور عَيْنه يميناً وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقّب وراح يقول فى نفسه : لعله يقصدنى .. أما المستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة فى الدنيا أن يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته ولا يُرهق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أرْخِصوه ، قالوا : وكيف لنا ذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإذَا غَلاَ شَيءٌ عَلَيَّ تركْتُه فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذَا غَلاَ

ولا تَقُلْ : النفس توّاقة إليه راغبة فيه ، فهى كما قال الشاعر :

وَالنفْسُ رَاغِبةٌ إذَا رغَّبْتَها وَإذَا تُرَدّ إلى قَليل تَقْنَعُ

وفى حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولمّا ينضج الطعام ، ولم تُعَد المائدة وهو جائع ، فيأكل أىَّ شىء موجود وتنتهى المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنعُ النفسُ بما نالتْه .

ولكى يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته لا بُدَّ له أنْ يوازن بين

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . والوجْس : الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك . والتوجس : التسمع إلىّ الصوت الخفى . [لسان العرب ـ مادة : وجس] .

دَخْله ونفقاته ، فمَنْ كان عنده عُسْر فى دَخْله ، أو ضاقت عليه منافذ الرزق لا بُدّ له من عُسْر فى مصروفه ، ولا بُدّ له أنْ يُضيِّق على النفس شهواتها ، وبذلك يعيش مستوراً ميسوراً ، راضى النفس ، قرير العين .

والبعض فى مثل هذه المواقف يلجأ إلى الاستقراض للإنفاق على شهوات نفسه ، وربما اقترض ما يتمتع به شهراً ، ويعيش فى ذلة دَهْراً ؛ لذا من الحكمة إذن قبل أن تسأل الناس القرض سَلْ نفسك أولاً ، واطلب منها أن تصبر عليك ، وأن تُنظرك[1] إلى ساعة اليُسْر ، ولا تُلجئك إلى مذلّة السؤال .. وقبل أن تلوم مَنْ منعك لُمْ نفسك التى تأبَّتْ عليك أولاً .

وما أبدع شاعرنا الذى صاغ هذه القيم فى قوله :

إذَا رُمْتَ أنْ تستقرضَ المالَ مُنفقاً ... على شَهَواتِ النفسِ في زَمَنِ العُسْر
فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ من كَنْز صَبْرِها ... عليْكَ وإنظاراً إلى سَاعةِ اليُسْر
فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنى ، وإنْ أبَتْ ... فكُل مَنُوع بعدها وَاسِعُ العُذْر

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ولَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

والخير فى الآخرة من الله ، والنعيم فيها على قَدْر المنعم تبارك وتعالى ، دون تعب ولا كَدٍّ ولا عمل .

---

(١) الإنظار : الإمهال والتأخير . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب ـ مادة : نظر] .

ومعلوم أن كلمة : ﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

التى فسّرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء فى قول الكافرين :

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير فى الاثنين ، إلا أن أحدهما زاد فى الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله ﷺ :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »(1) .

لذلك لما قال :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

قال : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

أى : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها حسنة الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

أى : دار الآخرة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) كتاب القدر . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار المتقين كأنها برقية ، فقال سبحانه :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾

والجنات : تعنى البساتين التى بها الأشجار والأزهار والثمار والخضرة ، مما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذُن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .. ليس هذا وفقط .. هذه الجنة العمومية التى يراها كل مَنْ يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [الصف]

إذن : هنا قَدْر مشترك للجميع :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٣١) ﴾ [النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ..(٣١) ﴾ [النحل]

أى : جنات إقامة دائمة ؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا حاجة له إلى غيرها .. هَبْ أنك دخلْتَ أعظم حدائق وبساتين العالم ـ هايد بارك مثلاً ـ فقصارى الأمر أنْ تتنزَّه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك المَلل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه النزهة .. أما الجنة فهي جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٣١) ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة]

ومعنى « تجرى تحتها » أى : أنها تجرى تحتها ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٣١) ﴾ [النحل]

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١) ﴾ [النحل]

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيئتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلتَ على إنسان رقيق الحال فلَكَ مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلتَ على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لكَ مشيئة أعلى .. وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشاء منه ، فإذا كان المشاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شىء تكون مشيئتُك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليستْ كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدّد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حَسْبَ مراتبهم ومراكزهم .

ويُرْوى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها ابنةُ الملك ، ولو كنت طلبتَ منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمتُ أن وراء الألف عدداً لَطلبْته .. فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبى ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآنى :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١) ﴾ [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) ﴾ [الزخرف]

قال : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قَلْب بشر »[1] .

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾ [النحل]

أى : هكذا الجزاء الذى يستحقونه بما قدموا فى الدنيا ، وبما حَرَموا منه أنفسهم من مُتَع حرام .. وقد جاء الآن وقْتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأدْوم ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ[2] فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(٢) أسلف : قدَّم أو فعل من قبْل . قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ .. (٣٠) ﴾ [يونس] أى : ما قدمت وما عملت فى الزمن الماضى فى الدنيا . [القاموس القويم ١/٣٢٣] .